الكاتب أو مخاض

حضّر كل طقوس الكتابة التي يعرف عنها، قلم و أوراق رفض الاستغناء عنها بشدة لصالح الحاسوب.لأن أثر المداد بكل تدريجاته و تعريجاته، إنما هو امتداد لما يجيش داخله حتى ضاقت به حناياه؛ وهو هدية مقدسة لتسريب لواعجه، كأنه كوة صغيرة يتسلل منها الضوء لينير معالمه الداخلية المجهولة عنه حتى، أحيانا. هكذا كان يقول، فاختلاط اللونين الأبيض و الأسود، هذا منبع كل الألوان وذاك منفاها جميعا، يعطي انطباعا عن الأصل، عن بداية البداية، وعن حقيقة الأشياء. وهو قد أزمع أن يبثه حقيقته أيضا.

حبر وورق، يمثلان برزخا بين عالمين: الأول خاص به هو وحده، فيه يكون ملكا يسود ويحكم، يعزل فكرة و ينصب أخرى، يقضي بين الآراء، فيتبنى موقفا مساندا لهذا ورافضا لذاك؛ و الثاني يشاركه فيه الآخرون، أو يشارك هو فيه الآخرين. هنا هو مجرد متفرج مهمل على جنب طريق تغص بالأحداث، لكل حدث بطل وضحية، أكان الصراع حول القوت اليومي أو حول تصريف مصير أمة. هنا يشعر بالغرابة والغربة عن نفسه وعن الناس أجمعين؛ فيحضن نفسه، و ينكمش جسده من تلقاء نفسه. عجبا لهذا الشعور الذي ينتج قشعريرة البرد تهز الإنسان كتيار كهربائي، فتصطك أسنانه وترتعد أطرافه، دون ملجئ للدفء. فالشمس في الخارج ساطعة، لكنها تبث البسطاء فقط، الذين تقرأ أرواحهم في أعينهم، أو من قرروا تنظيف بيوتهم الداخلية، بإخراج أثاثها الذي سكنه العفن لطول مكوثه في الظل؛ أما هو، فمغارته حالكة، لا منفذ إليها إلا منها، لذا قرر أن يكتب.

تحركت يده نحو القلم تمسكه برفق كما تمسك ريشة الرسام، ظنا منه أن الكلمات ستندفع في طريقها إلى الخروج، لذا يجب أن يرخي أصابعه حول قلمه لكي يسطرها بسرعة تتناسب مع صبيبها.

لا شيء، لم يحصل التماس المقدس حتى، فكيف بالاتصال الحميمي؟ الورق لا زال أبيضا، وهو ماسك القلم يتساءل بذهول أين هي الكلمات!؟ أليس وجوده مجرد فكرة بالنسبة إليه؟ أليس الآخرون مجرد صور في عقله؟ أليس عقله هو الآخر مجرد إدراك يصوغ نفسه في كلمات؟ وإذا ما المشكلة؟ لم لا تصوغ تلك الكلمات نفسها؟ لم لا ترسم جسدها المليء بتلاوين الفتنة لتثبت وجودها وتعلن للعالم أنه مخطىء بشأنه وشأنها أيضا؟ لم ترفض إبراز علاقتهما الشرعية للوجود المادي؟ لم لا تفاخر به بين أحياء الشمس كما يفعل معها بين أحضان الظلمات؟

إنه خذلان تام وخيانة عظمى لكل ما مرا به سويا. عقله صار أشد بياضا من الورق الموضوع أمامه على الطاولة، فكيف للبياض أن يُسوّد مثيله؟! تداعى القلم من بين أصابعه التي صارت خائرة كأنها أصيبت بالشلل، وهو يحدق بها كجزء منفصل عن كيانه. مجرد

لقطة من مشهد يمر من أمامه، لا يعنيه إلا بمقدار فضوله في تلك اللحظة. شعر بالغضب الجارف يتصاعد داخله من نفسه، لا بل منها هي التي رفضت الانكتاب و الانطباع على الورق.هي التي خنقته وقادته إلى مجلسه هذا، لتتركه يحدق كمعتوه عاجز عن تحديد سبب تواجده هنا.

إنه لا يكاد يصدق هذا التبخر الفجائي لعوالمه، لحروبه وبطولاته، لحيواته وانبعاثاته. كان ينوي أن يخبر سكان الأرض الحمقى عن ماهيته، أن يكشف لهم سره بحيث يرى الصدمة، ثم الندم، ثم التبجيل في وجوههم لشخصه الذي أخطؤوا في تقديره، بل لم يكلفوا أنفسهم عناء ملاحظة تواجده. كانت الخطة أن يستعملها هي معذبته، في تضميد الجروح التي أثخنت روحه كأي محارب شجاع في معارك الحروف؛ لكنها قلبت عليه ظهر المِجن، وانمحت تاركة وراءها الفراغ المؤلم.

إنه وحيد ومريض بالكلمات، دواءه البوح الذي لم يجد إليه سبيلا في هذه اللحظة. مهلا، ربما هذه هي؛ لعل الوقت غير مناسب أو المكان. من يعرف؟ قد تكون لها طقوس خاصة في التجلي، كالأرواح تستحضر بخلطات وتعاويذ لا حصر لها. عاودته همة فجائية فنهض من أمام الأوراق ليرخي الستار على النافذة الوحيدة في غرفته الجرداء، لأن الخلل قد يكون في الضوء بما أنها كائن ظلامي الوجود والنزعة. كذلك شغل سوناتة ضوء القمر بمستوى يرتفع عن الهمس قليلا، لعلها تساعده في مناجاة المخلوق المقدس ماذا ينقص؟ آه نعم، مكتب حقيقي وأرفف خزائن مليئة بالكتب؛ لكنه لا يملك هذا الترف، إضافة إلى أنها مجرد كماليات برجوازية، والكلمات كائن يتجسد و يكتمل في أحضان المعاناة المادية و المعنوية. إذا فكرسيه المؤلم و طاولته العديمة الشكل يفيان بالغرض.

اتخذ مكانه من جديد ورفع قلمه في وضعية كتابة مثالية، حركه ليبدأ و الأمل يحذوه في الخلود الأدبي، لكنه لم يطاوعه ولو بخربشة دون معنى. تضاربت في حلقه زلازل من الضحك و براكين من الدموع الحارقة، و خرجت على شكل هستيريا متواصلة جعلته يهتزّ في مقعده كالممسوس؛ وحين غادرته، تركته كأرض أنهكها العطاء. ودون أن يشعر امتلأت أوراقه بحالات حزنه و انكساره في حضرة الكلمات. كتبها و كتبته و اندمجا معا في بوتقة الإبداع. حصلتُ على نسخة من عمله مصادفة لدى بائع كتب مستعملة؛ كانت قصة قصيرة بعنوان مخاض.